مشاهداتى بشبه الجزيرة العربية (*)

الاستاذ محمد حسين
الإخصائى الأول ، ورئيس أبحاث الجراد بوزارة الزراعة المصرية

سيداتى وسادتى : يسرنى أن أتحدث إليكم الليلة من محطة الإذاعة البريطانية بعاصمة انجلترا حديثاً موجزاً يتناول أهم مشاهداتى ببعض أقاليم شبه الجزيرة العربية التى ساعدنى الحظ وزرتها أكثر من مرة خلال الأعوام العشرة الأخيرة .

وسأبدأ بوصف أهم المظاهر الطبيعية : فشبه الجزيرة هذه وطولهـــا يقرب من الألف والثمانمائة ميل ونحو ذلك فى العرض ليست كما يتخيل الكثيرون صحراء رملية منبسطة لا يدرك البصر نهايتها ، بل هى على النقيض من ذلك متباينة التركيب والتكوين . ففى الغرب تجرى سلسلة جبال تزداد ارتفاعا كلما تقدمنا إلى الجنوب وتفصل هذه المرتفعات البلاد إلى إقليمين رئيسيين : الغربى والشقة فيه بين الجبال والبحر الأحمر ضيقة ، والشرقى وهو مترامى الأطراف يتجـــاوز الألف ميل فى العرض إلى الخليج الفارسى وما حوله بأقصى الشرق .

وإلى الشمال الغربى يقع الحجاز ، ويمتد من جنوب العقبة حتى جده ، وعلى ساحله موانىء عدة أهمها ينبع ، بينها وبين المدينة المنورة فى الشرق قرابة المائة والخمسين ميلا ، وتمتاز بمرفأ طبيعى ، وعلى مسافة ثلاثين ميلا منهـــا واحة « ينبع النخيل » الشهيرة بالنخيل .

وتقع جدة إلى الجنوب قبالة مكة المكرمة ، وهى أكبر ثغور الحجاز وأكثرها ازدهاراً ، ولها طابع معمارى خاص بمنازلها وطرقها . كان يحيط بها حتى العام الماضى سور ثم أزيل ، وقد عبدت طرقها وأقيم بالقرب من ناحيتها الشمالية الشرقية مطار حديث ، وبخارجها قبر ينسب إلى حواء أم البشر ، وترسو البواخر على مسافة

(*) سجلت هذه المشاهدات بمحطة الاذاعة البريطانية بلندن فى ٤ نوفمبر سنة ١٩٤٨ حين وجود حضرة كاتبها فى مأمورية مصلحية بانجلترا ، وأذيعت من نفس المحطة فى ٢١ ديسمبر الماضى .

غير قليلة من الشاطىء ، ولهذا شرعت الحكومة فى مد لسان صناعى ترسو السفن قربه.

ومن أهم المشروعات التى تمت فى هذا الميناء أخيراً مدها بالماء من بعض العيون بوادى « فاطمة » الواقع بين مكة وجدة .

وتبعد جدة عن كعبة المسلمين بنحو ثلاثين ميلا ، وإلى الشرق على بعد المائة ميل تقريباً «واحة الطائف» المشهورة بطيب هوائها وحلاوة مائها منذ القدم . وبين جدة والمدينة قرابة الثلثمائة ميل ، والطريق يختلف بين الرملى والصخرى تقطعه السيارات بين يوم ويومين .

فإذا تركنا المدينة شمالا بشرق نبلغ بعد حوالى الستمائة ميل مدينة «حايل» قاعدة إقليم شمر التى لجبالها ووهادها بل لرمالها طابع خاص، فرمالها حمراء تبدو فى بعض الأحايين كالجبال ، وتمتد إلى مسافات بعيدة ، ويطلق عليها الأهلون هناك اسم « النفود » ويلقى المرء بين ثنايا هذه المرتفعات أعناباً ونخيلا وماء يجرى سلسبيلا ترفعه الساقية من العيون الجارية .

ويمتد نفوذ حايل إلى حدود شرق الأردن فى الشمال ، وتجتازها الإبل فى نحو العشرين يوما ، وإلى جنوب « حايل » إقليم الدهناء وبريده وعنيزة المشهورتين فى التاريخ ، ثم نجد وعاصمتها الرياض ، ويليها شرقا الأحساء .

وفى إقليم الحجاز نجد مكة وجدة والطائف وينبع والمدينة وغيرها ، وتنتهى شمالا حول العقبة .

ويلى الحجاز جنوبا العسير ، وهو إقليم جبلى يعرف ساحله بتهامة ، وإلى جنوبها مملكة اليمن ، وهى جبلية التكوين عدا سواحلها . ومن أهم موانيها « الحديدة » .

وإذا ترك المسافر سواحل اليمن إلى الداخل فإنه يصعد إلى سلسلة مرتفعات ، وتبعد « صنعاء » العاصمة عن « الحديدة » نحو الربعمائة ميل ، وتقع على ارتفاع عشرة آلاف قدم تقريباً .

وإلى شرق اليمن وشمالها الشرق وإلى جنوب نجد إقليم مترامى الأطراف اسمه

« الربع الخالى » لا يعرف من طبيعة تكوينه الآن إلا النزر اليسير . وفى أقصى جنوب شبه الجزيرة تقع عدن ومحمياتها وحضرموت .

ولقد كان لهذا التباين فى تركيب هـــذه الأقاليم أثره فى اختلاف الظروف الطبيعية كالحرارة والرطوبة وغيرهما . فموسم المطر بالأقاليم الساحلية هو الخريف والشتاء غالباً والصيف نادراً ، أما فى الداخل فإن هطوله فى الأشهر الحارة غير غريب ، وتبدأ الأمطار بجنوب العسير وفى اليمن من أواسط الربيع حتى الصيف ، وتكاد تأتى عاماً بعد عام ، فهى موسمية ، وفى مثل هـــذه الأقاليم نجد الأرض خضراء بالنباتات بعكس الجهات التى يأتيها المطر عاما ثم ينقطع سنة أو أكثر فالأعشاب تنمو وتزدهر حينما ينزل الغيث ، ويمتلىء الضرع ، إذ تجد الماشية غذاء كافيا وهـــذا بعكس الحال حينما ينقطع ، إذ تجف النباتات وتهلك الحيوانات ، ويتوجه الأهلون إلى الله سبحانه وتعالى فى زرافات خارج دورهم ضارعين إليه أن ينزل عليهم بركته من سماء فيضه ورحمته .

والجو فى المناطق الساحلية معتدل بوجه عام ، فهو حار شتاء ورطب صيفا وربيعا ، أما فى الداخل فإن لجفاف الهواء أثره فى تخفيف الرطوبة ، وحيثما ارتفع المرء وبعد عن سطح البحر وجد الهواء عليلا .

ولهذا كله أثره فى صحة الإنسان ، فأهل الجبال أقوى بنيـــة وأحسن صحة من ساكنى الساحل .

وفى الحجاز مناطق زراعية محدودة المساحة أكثرها حول بعض المدن مثل « ينبع النخيل » و « المدينة » وهى مشهورة منذ القدم بزراعتها وبساتينها ، ووادى فاطمة قرب مكة .

وقد بدىء أخيرا باستثمار منطقة زراعية هامة قرب الرياض فى الخرج ، والحسا مشهورة بنخيلها وزراعتها . والمناطق الجبلية ، والساحلية بالعسير وفى مملكة اليمن من أغنى أقاليم شبه الجزيرة زراعيا . واليمن معروف منذ القدم بخصوبة أرضه ووافر اخيرته لهذا ، أطلق عليه إسم بلاد العرب السعيدة ، وكانت مركزا هاما للتجارة

بين الشرق والغرب فى القرون الوسطى ، فإليها كانت تأتى السفن من الصين والهند والجزائر الشرقية حاملة العطور والبخور فيتباد لونها مع خيرات اليمن من محاصيل زراعية وأغنام وجلود ، ويرى المسافر فى تهامة اليمن مساحات كبيرة منزرعة بالقطن والذرة والدخان ونبلة الصباغة وغيرها ، فإذا تقدم وصعد إلى الجبال يراها مكسوة بحلة سندسية من مختلف زراعات البن والفاكهة المتعددة الألوان والأنواع والمحاصيل المتباينة . أما عن الثروة المعدنية فإن الذهب والبترول أهم ما كشف عنه بالمملكة العربية السعودية ، وسيحولان ترابها تبرا ، ويفيضان على أهلها بالخير والبركات وكذلك اليمن فإن غناه المعدنى لا يقل عن ثروته الزراعية ، ويرجى أن تكلل الجهود وتتضافر الأيدى لكشف ما فى باطن أرضه من خير كثير .

وكانت الإبل هناك قديما مطية الانسان فى نقله وحمل متاعه بتلك الأقاليم ، ولكن استبدلت بها تدريجيا والى حد كبير السيارات فغدت من أهم سبل الانتقال ، وكذلك الطائرات فإنها اقل عناء وأوفر وقتا وقد كثر عددها وعم استعمالها .

وترد السفن الى موانى البحر الأحمر والخليج الفارسى وعدن من مختلف أنحاء العالم محملة بالمواد الغذائية والكساء ثم تعود محملة ببعض ما يفيض من خيرات البلاد من تمر وجلود وبن وغيرها .

ومن أهم الوسائل التى لا زالت مستعملة هناك فى نقل البضائع بحرا المراكب الشراعية ، وتعرف باسم « سنبوا » وهى تصل حتى إلى موانى مصر ، بل تبلغ إلى الهند والخليج الفارسى .

ولقد كان لهذا التبديل والتغيير فى مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية أثره فى معيشة السكان ، إذ غدوا اكثر استقرار وتجمعاً فى بيئاتهم ، ولم تعد للسكان صفة الارتحال والتنقل المستمر كما كان يفعل آباؤهم البدو الرحل من قبل . والواقع أن أكبر دافع للهجرة والانتقال من إقليم لآخر هو المطر والبحث عن المراعى الخضراء بالعشب ، ففيها يجد العربى حاجة إبله من غذاء أخضر ، كما أنه يتمتع بألبانها ولحومها ، فإذا ما جف العشب وحل الصيف انتقل مع أهله واستقر قرب مدينة

أو مورد ماء ، وتكون إبله وضأنه قد نمت وسمنت فيستبدل بها ما يحتاج إليه من دقيق وقماش وغير ذلك من حاجيات الحياة ورغبات أهله وعياله .

والآن أرجو أن أنتقل بحضراتكم إلى ناحية أخرى من الحديث تتعلق بأهم الأسباب التي جعلتني أزور هذه الأقاليم في تلك السنين المتوالية .

وكان الدافع لذلك ما كلفت به من أعمال تتعلق بأبحاث الجراد ومكافحته ، فهذه الآفة كما تعلمون حضراتكم شديدة الخطر على الزراعة ، ورغم أنها عاصرت الانسان وضايقته منذ أقدم العصور حين بدأ يستثمر الأرض بزرعها ، غير أنها أهملت طويلا على اعتبار أنها شر سماوي ونقمة آلهية لن يقدر الإنسان على دفعها أو منعها .

فلما تقدمت العلوم والمعارف أمكن الأخذ ببعض الوسائل العلمية الحديثة بغية إقلال أعداد هـــذه الآفة والقضاء عليها .

وفي السنين الأخيرة ازداد اهتمام الدول والشعوب بمكافحة الجراد وتعددت سبل مقاومته ، وتشعبت الأبحاث المتعلقة به . ولا يتسع المجال لذكر هذا أو تفصيله ، ولكني أرجو الإشارة إلى ناحية واحدة هي التعاون الذي ظهر بين مختلف البلدان المعرضة لغزو الجراد وخطره ، فقد اتخذ مظاهر شتى أهمها ما حـــدث في سني الحرب العالمية الأخـــيرة حيث تعاونت حكومات وشعوب بلدان عدة تمتد من شاطىء الاطلانطي حتى الهند والصين بأقصى الشرق لمكافحة نوع من الجراد يعرف باسم « الجراد الصحراوي » .

ومن أهم المناطق التي شملها هذا العمل شبه الجزيرة العربية ، فإنه بفضل التعاون بين السلطات المختصة بالمملكة العربية السعودية واليمنية وتكاتفها في العمل مع بعثات الجراد المصرية والبريطانية وغيرها أمكن القضاء على أعداد لا حصر لها من هذه الآفة ، وفي نفس الوقت بل من قبل ذلك كان لمركز أبحاث مكافحة الجراد بلندن فضل غير قليل في التوجيه والبحث وجمع الأخبار المتعلقة بتحركات الجراد وغاراته المنتظرة وتبليغها إلى الحكومات والهيئات المهتمة بمكافحته .

والذى يجرى تحقيقه الآن هو البحث عن المناطق الأصلية المحدودة النطاق التى يتناسل فيها هذا النوع من الجراد، ثم العمل على إبادته وهو مايزال محدود العدد فى مهده .

ومن دواعى سرورى زيارتى لمركز أبحاث مكافحة الجراد بلندن وبعض الجامعات والمعاهد العلمية والمصانع الكيمائية بانجلترا وغيرها من الممالك الأوربية للوقوف على شتى النواحى العلمية والعملية المتعلقة بأبحاث الجراد ومكافحته، وذلك تمشيا مع السياسة التى اتبعتها وزارة الزراعة المصرية وغيرها من المصالح الحكومية فى العهد الأخير ، بإيفاد الإخصائيين من رجالها إلى شتى الممالك الأوربية والأمريكية لكى يتصلوا بزملائهم من العلماء وأهل البحث ليتشاوروا فى مختلف الوسائل التى تساعد على حل مشاكلهم، ويتدارسوا ما بلغه التقدم العلمى فى الميادين المختلفة ويقتبسوا ما يلائم مصر .

ولا تقتصر فائدة هذا العمل على الناحيـــة العلمية، بل تتجاوزه إلى النواحى الثقافية والاجتماعية مما يكون له أطيب الأثر على الإنسانيـــة خصوصاً أن هذا الاتصال والدراسة يهدفان إلى مكافحة أعدائها، وذلك من أشرف وأنبل سبل العلم، والسلام عليكم ورحمة الله .